الاتجاه الإسلامي في شعر السنوسي

بقلم / محمد بن سليمان القسومي*

اكتسب محمد بن علي السنوسي[1] منزلة أدبية رفيعة بإنتاجه المتميز، فهو شاعر مطبوع يعد في الطليعة من شعراء المملكة العربية السعودية. أشاد بشاعريته جملة من النقاد والكتاب، و«لقد كان دخوله في حظيرة شعراء العصر السعودي الحاضر مديناً لعدة أمور، منها جِدُّه في مطالعة كتب الأدب، وحفظُه للشعر قديمه وحديثه، يضاف إلى ذلك القدوة الحسنة في عالم الشعر المعاصر التي هُيئت له، التي يمثلها والده الشاعر العالم (رحمه الله)..، وشعر محمد بن علي السنوسي ذو انطباعات قوية ساحرة..، ولذا كانت مجلة المنهل «قد لقبته بشاعر الجنوب»[2].

والحديث في هذه المقالة عن الاتجاه الإسلامي في شعر السنوسي بوصفه جانباً من جوانب ذلك النتاج المتميز، فالمتابع له يلاحظ تجلي الحس الإسلامي في جل الموضوعات الشعرية التي تناولها في قصائده، فهو «شاعر قضية؛ ذلك أن نبرة الاستياء لا تخفت في شعره، والمضمون الإسلامي محتوى يبدو في [جل] قصائده، وإسهاماته في المناسبات بعامة يحمل هذا المضمون، وفي الأعمال الإسلامية ينفرد المضمون الإسلامي بالمحتوى، محاولاً تركيز الدلالة، وتحديد المسار»[3].

فحديثه عن الجزيرة العربية دعوة الى تحسس مواطن الطهر فيها، واستلهام الرشد مما يشيع في جوها من أشعة النور الإلهي:

هي الجزيرةُ فاقبسْ أيُّها السّاري ... هُدًى من البيت أو نوراً من الغار
واستلْهِمِ الرُّشْدَ من آي ومن سورٍ ... وضَّاءةٍ وأحاديثَ وآثارِ[4]

لقد سرت في أجواء الجزيرة العربية نسمة علوية مباركة، أحالت صحراءها المحرقة نوراً، يهدي الناس، فإذا الهجير نسيم عليل يغشى القلوب، فيبل صداها، وإذا النور يشع في أرجاء المعمورة، ويزداد تألقاً بخير خلق الله، وإذا شاعرنا السنوسي يقول مفتخراً:

من الجزيرةِ من أرضي ومن بلدي ... تألقَ النُّورُ نُورُ الحقِّ والرَّشَدِ
ومن رُباها رُباها الطاهراتِ ثرًى ... تنفَّسَ الصُّبْحُ من بدرٍ ومن أُحُدِ
نورٌ تألَّقَ من نُورٍ فرَقَّ به ... قلبُ الحياةِ وبَضَّ الصَّخْرُ بالبَرَدِ
وفاض عبرَ شعوبِ الأرضِ مندفعاً ... يُحْيِي القلوبَ ويَشْفِي ثَغْرَ كُلِّ صَدِي
جرى فأخصبتِ الدُّنْيا نَدًى وهُدًى ... تمازجا كامتزاجِ الرُّوحِ بالجَسَدِ
وأَشْرقتْ بابنِ عبدِاللهِ وائتَلَقَتْ ... رسالةُ اللهِ زاهٍ نُورُها الصَّمَدِي
محمدٌ خَيْرُ خَلْقِ اللهِ قاطبةً ... خَلْقاً وخُلْقاً على السَّراءِ والنَّكَدِ[5]

خلق قويم

وأخذ السنوسي يدعو إلى تمثل ذلك الخلق القويم الذي كان عليه النبي المصطفى (صلى الله عليه وسلم)، من خلال رسمه الشخصية الإسلامية في تعاملها مع كل شأن من شؤون الحياة. ولعل السنوسي قد أدرك أن المجتمع الإسلامي في هذا العصر

حس إسلامي بارز في جوانب أعماله الشعرية

(*) محاضر في كلية اللغة العربية بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

أحوج ما يكون إلى مثل هذا اللون من الشعر، لتعدد الثقافات الوافدة على مجتمعنا، وحاجة المجتمع إلى تذكيره بالخُلُق الإسلامي المثالي، كي لا تطمس تلك الثقافاتُ حصيلته من أخلاقه الإسلامية المتوارثة.

يقول السنوسي على لسان المسلم المفتخر بسلوكه المثالي:

أتحاشى الشَّر جَهْدي فإذا ... لجَّ في عَسْفي تحدَّاهُ اعْتِسَافي
خُلُقٌ وَرَّ ثَنِيْهُ أَحْمَد ... فجرى مِلءَ دِمَائي وشَغَافي
أنا جارُ الجارِ من كلِّ أذى ... وصديقُ الصِّدْقِ في كلِّ خِلافِ
وأخو الإنصاف لا أرضى به ... بدلاً في كلِّ ودٍّ وتَجافِ
وحليفُ الحقِّ أختارُ اللَّظى ... مسلكاً فيه على خَضْرِ الضِّفافِ
...مسلمٌ لله وجهي ويدي ... ولساني وغُدُوِّي واعتكافي
فإذا عاهدتُ قدَّمْتُ دمي ... فِديةً للعهدِ من كل انحرافِ
وإذا حدَّثْتُ أصغيتُ أخي ... كلَّ مَسْتُورٍ ومَنْظُورٍ وخافِ
وإذا أَكْرَمْتُ جاوزْتُ المدى ... وجرى السَّيْلُ برسَّابٍ وَطافِ
وإذا حاربْتُ كانت غايتي ... نُصرةَ الحقِّ بِصِدْقٍ وعَفافِ
وإذا سَالمتُ سالمتُ على ... مثلِ ضَوءِ الشَّمْسِ في جُردِ القَيافي[٦]

ويحث السنوسي على الزهد في الدنيا، مذكراً بالآخرة، داعياً الى الإعداد لها، فما الحياة الدنيا إلاّ جسر يعبره الناس إلى لظى جاحم أو نضرة وسرور، فبالأعمال يتفاضل الناس، إن خيراً فخير، وإن شراً فشر. والسنوسي يريد من ذلك كله أن يجنب أفراد المجتمع الإسلامي مسار الشر، ويقربهم إلى جادة الصواب، بالتذكير ببعض المبادىء الإسلامية، وحثهم على العمل الخيّر، والاستفادة من دروس الحياة:

أخي إنما الإسلامُ برٌّ ورحمةٌ ... وعطفٌ له في راحتيك عَبِيْرُ
ودنياكَ جِسْرٌ في الطريق إلى الهُدى ... ففكِّر إلى ما ذا غداً ستصيرُ
فقدِّم إلى أُخراكَ ما شئتَ إنه ... لظىً جاحمٌ أو نضرةٌ وسرورُ
تُعلّمنا الدنيا فننسى دروسها ... ونلهو وعند الامتحانِ نَشُورُ
حماقةُ طبعٍ آدميٍّ وغفلةٌ ... تَعاقبَ أجيالٌ بها وعُصُورُ
مضتْ مُنْذُ قارون بنا وحياتُنا ... تدورُ على أهوائها وتسيرُ
وأنتَ ملاقٍ كلَّ شيءٍ عَملتَه ... جزاءً وفاقاً والحسابُ عسيرُ[٧]

هكذا كان السنوسي يمارس الدعوة إلى دين الله بالكلمة الطيبة، والحكمة والموعظة الحسنة، متمثلاً قول الله سبحانه وتعالى: «ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة...»[٨].

دعوة إلى تمثل الخلق القويم في الشخصية الإسلامية

وبعد أن مارس هذا السلوك عملياً، قدم للمسلم الداعية ما يجب أن يتعهده في سلوكه، فحشد مجموعة من الصفات التي كان يتمثلها الرسول القدوة (عليه أفضل الصلاة والسلام) حاثاً الداعية المسلم على الاهتداء بها ليكون أنموذجاً حسناً للسلوك الإسلامي القويم:

أخي المسلم الداعي إلى الرُّشْدِ والهُدى ... حَرِيٌّ بداعي الرُّشْدِ أن يكُ أَرْشَدا
لقد طاب مسعاك الحميدُ فلا تكن ... عنيفاً فإن العُنْفَ يُغري التُّمَرُّدا
وكن هادئاً في قوله وفعاله ... رفيقاً فإن الرفقَ ما زال أحمدا
وصيةُ طه المصطفى و هْوَ قدوةٌ ... لكلِّ دعاةِ الرُّشْدِ شيخاً وأَمْرَدا
فخذْ بِيَدِ الغاوي ومهِّد سبيلَه ... إلى الرُّشْدِ يَمْشي مستقيماً مُسَدَّدا
وبَشِّر ويَسِّرْ فالحياةُ مفازةٌ ... دليلُ الوَرى فيها هو الدِّيْنُ مُرْشِدا[٩]

السنوسي رسم للدعاة شخصية مثالية تُحتذى

ولم يكن السَّنوسي من أولئك الذين يقولون ما لا يفعلون، بل كان - كما شاهدنا في المثالين السابقين - يمارس العمل على النهج المرتضى ثم يدعو الى اقتفاء هذا النهج. وهو كسائر البشر، تلم به عوارض الزمان، وتغشاه مشاعر غريبة، وتقذف به تأملاته إلى سبل لم يعتد ارتيادها، فإذا تفرقت به السبل، وأخذ تيار مشاعره يحتدم لم يجد بداً من الإفصاح عن حيرته بالتساؤلات علّه يجد مخرجاً، فلا يملك إلاّ أن يردد:

من أيّ قاعدةٍ وأيّ رصيفِ ... تجري سفينُ مشاعِري بحروفي
إنْ قُلْتُ من قلبي فقدْ عَصَرَ الأسى ... قلبي وسالَ على يديَّ نَزِيفي
أوْ قُلْتُ من أدبي فقد لفحَ اللَّظى ... أدبي وغادَرَهُ بغيرِ رَفِيْفِ
أو قُلْتُ من نظرِيْ فَقَدْ غَشِيَ القَذَى ... نظري بسودِ (نوائبٍ) وصروفِ
آو قُلْتُ من فِكْرِيْ فَقَدْ جَرَحَ الهوى ... فِكْرِيْ بِسُمْرِ رُؤىً وبيضِ طُيُوْفِ
أو قُلْتُ من سَمعي فقدْ صَكَّ الرَّدى ... سمْعي بِقَصْفِ (رَوَاعدٍ) وصُرُوفِ
أو قلتُ من طَبْعي توقَّفَ مَرْكَبِي ... أَأَسِيْرُ والتَّيَّارُ غيرُ حَلِيْفِ[10]

لكنه بروحه الإسلامية يجد حلاً لتلك التساؤلات، فلا يذهب بعيداً، بل تقوده عاطفته الإسلامية إلى الدين الحنيف، ليجد سكينته، وحينئذ يعود لممارسة دوره التوجيهي:

لا لن أَضِلَّ فقدْ وَجَدْتُ سَكِيْنَتي ... في الدِّيْنِ وهْوَ دليلُ كلِّ كفيفِ
فانضحْ نُهاكَ به وقَلْبَك إنَّه ... رِيُّ الصَّدِيِّ وجَنَّةُ المَلْهُوفِ
واجعله نَهْجاً في الحياة وواقِعاً ... تحياه لا كُتباً وراءَ رُفُوفِ[11]

والإيمان الصادق نور للقلب، وشفاء للبدن، ودرع واقٍ من كل سوء:

يا خليلي الدينُ نورُ القلو ... بِ وطبيبُ الحياةِ أيُّ طبيبِ
لا تَدَعْ للأسى إلى قلبِك الشّفـ ... ـافِ درباً ولا تَلِنْ للخطوبِ
كم رَأَيْنا وكم سَمِعْنا فَدَعْ قَلـ ... ـبَكَ يرتاحُ من عناءٍ عجيب
وَدَعِ الفلسفاتِ واستلْهِم الإيـ ... ـمَانَ وانضحْ به جفاف النُّضُوبِ[12]

وإحساس السنوسي بعظمة الخالق سبحانه وتعالى لا يكاد يفارقه وهو وثيق الصلة بربه عند كل أمر يَحْزُبُهُ، فقد أجرى عملية جراحية لعينه، وأمام أجهزة الطب، والأطباء المهرة، راح يناجي ربه يسأله اللطف بعينه:

يا إلهي أَسْلَمْتُ للطِّبِ عيْنيَّ وأنتُ الطَّبيبُ فالطفْ بِعَيْنِي[13]

وقد ظلت روح الشاعر المسلم مصاحبة لشاعرنا في إبداعاته الشعرية، نظر إلى نهضة بلاده، وما تتمتع به من أمن وطمأنينة رأى أن كل ذلك نابع من تطبيق الشريعة الإسلامية:

ننامُ ملءَ جُفُونِ اللَّيْلِ في دَعَةٍ ... والأرضُ مِنْ حَوْلنا قدْ شَفّها الأَرَقُ
حُكْمٌ على الأَمْنِ والإيْمَانِ مُرْتكِزٌ ... لا الزَّيْغُ يغزو نواحِيه ولا الرَّهَقُ
في دولةٍ بحمى الإسلامِ قائمةٍ ... عنه تذود وفي دستورِهِ تَثِقُ[14]

عظمة إلهية:

وكان يستحضر عظمة الخالق فيما يثير إعجابه في هذا الكون، فإذا شد بصره منظر في طبيعة بلاده، راح يطلق العِنان لشاعريته لتصف ذلك المنظر المعجب، لكنه لا ينسى أن وراء ذلك الإبداع خالق هو الأحق بالإجلال، فقد رأى جبل فيفاء وقد ألقت عليه الشمس أشعتها الذهبية، فشاقه انعكاس الظلال، وشموخ الجبل، وعلى الرغم من الأثر العميق الذي انطبع في نفسه من هذا المنظر الجميل، فإنه لم ينس

مبدعه جلت قدرته:

مُتْحَفٌ من أَشِعَّـــــةٍ وظِـــــلالِ ... في إطـــــارٍ من نَضرةٍ واخضِـــــلالِ
سـابحٌ في الفضـــاء يغْمُـرُهُ النُّـــو ... رُ بِفَيْـضٍ مـن السَّنـــــا والجَلالِ
يتحـــدَّى الـــذُّرى ويخترِقُ السُّحْـــ ... ـبَ ويـــزهـــو في عِـــزَّةٍ واختيـــالِ
صنعـــةُ المبـــدعِ المُصَـــوِّرِ جَلَّ اللّـــ ... ـــهُ ربِّي ربُّ العُـــلا والكمالِ[15]

استحضر في قصائده عظمة الخالق وتمنى لو ننظر في الكون

وإذا أُعجب السّنوسي بالإنجازات العلمية، أرجع ذلك إلى قدرة الله سبحانه وتعالى معلم العقل البشري، فقد ركب طائرة حلقت به إلى بغداد، فأبدع في وصف الطائرة إبان إقلاعها، ووصف مشاعره في أثناء ذلك، وقدم صورة عن تلك المدة الزمنية التي قضاها مع صحبه في جوف الطائرة، وعلى الرغم من انبهاره بهذا التقدم العلمي كان حسه الإسلامي يقظاً، مستحضراً عظمة الله سبحانه وتعالى، فكأنه في خضم تلك المشاعر التي انتابته - آنذاك - قد استحضر قول الله سبحانه وتعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾[16]

فوجد في هذه الآية ما يخفف من حدة انبهاره. يقول من قصيدته (على ضفاف دجلة):

إليكِ بَغْـــدَادُ طـــارتْ بي مُجَنِّحَـــةً ... أعَـــزُّها حَـــرَّ أشْـــواقي وأَكْبـــادي
فحَمْحَمَـــتْ ثُـــمَّ رفَّـــتْ ثُمَّـــتَ انطلقـــتْ ... كنَيْـــزَكٍ في سماءِ الأُفقِ وَقَّـــادِ
تَهابُها الـــرِّيْحُ أن تجتـــازَها فَـــرَقـــاً ... ويَسْتَحِي كلُّ بَـــرَّاقٍ ورَعَّـــادِ
ونحن كـــالـــزُغْب في أحشـــائِها زُمَـــراً ... جَنْبـــاً لجنبٍ وأعضـــاداً لأعضـــادِ
نقضي الســـويعـــاتِ في أعماقِها طَـــرَبـــاً ... قصفـــاً ورشفـــاً إلى مـــاءٍ إلى زادِ
مَنْ علَّم العقـل هـــذا العِلْمَ فـــانطلقتْ ... أجســـامُنـــا عَبْرَ آفـــاقٍ وأَطْـــوادِ
اللّـــه جلَّ جـــلالُ اللّـــه خـــالِقِنـــا ... سُبْحـــانـــه رُغْمَ تَجْديفٍ وإلْحَادِ[17]

لقد تجلى هذا الحس الإسلامي في موضوعات شعره المختلفة، إذ كان يصدر عن روح نزاعة إلى تذكر مبدعها في كل موقف من مواقف الحياة، حتى في الغزل يقف شاعرنا مندهشاً أمام فاتنة رأى أنها تجاوزت مقياس الجمال البشري، فسماها (أخت القمر)، وراح يصف أثر ذلك الجمال على قلبه الشاعري، وفي خضم فورة الشعور بهذا الجمال البشري أخذ - بحسه الإسلامي - يصل هذا الجمال بمبدعه، مسبحاً لخالقه، مجلاً إياه - يقول في (أخت القمر):

يـــا فتنـــةَ القلـبِ ومَهْـــوى البصرْ ... جـــاوَزتِ مِقْيـــاسَ جَمالِ البَشَرْ
كـــأنما خُيِّـــرتِ أنْ تُخْلَقِـــي ... فـــاخْتَرتِ أحْلى وأَرقَّ الصُّـــوَرْ
سُبْحَـــانَ منْ أَبْـــدَعَ هـــذا الصِّبـــا ... وجـــلَّ مـنْ نسَّـقَ هـــذا الحَوَر[18]

الهوامش

(١) ولد محمد بن علي السنوسي في مدينة جازان في شهر ربيع الأول سنة ١٣٤٣هـ.

(٢) الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر، عبدالقدوس الأنصاري، مطبوعات دارة الملك عبدالعزيز بالتعاون مع دار العمير للثقافة والنشر، مطابع سحر، ١٤٠٣، ص١٠٣.

(٣) النزعة الإسلامية في الشعر السعودي المعاصر، د. حسن الهويمل، من إصدارات المهرجان الوطني للتراث والثقافة، الرياض، ط١، ١٤١٢هـ، ص١٩٠.

(٤) الأعمال الكاملة للشاعر محمد بن علي السنوسي، منشورات نادي جازان الأدبي، مطابع الروضة، جدة، ط١، ١٤٠٣هـ، ص٣١١.

(٥) المصدر نفسه، ص٥١٥، ٥١٦.

(٦) المصدر نفسه، ص٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٢.

(٧) المصدر نفسه، ص٥٤١، ٥٤٢.

(٨) سورة النحل، جزء من الآية ١٢٥.

(٩) الأعمال الكاملة، ص ٧٦٠، ٧٦١.

(١٠) المصدر نفسه، ص٧٠٤، ٧٠٥.

(١١) المصدر نفسه، ص٧٠٥، ٧٠٦.

(١٢) المصدر نفسه، ص٥٥٠، ٥٥١.

(١٣) المصدر نفسه، ص٧٢١.

(١٤) من قصيدة (يا خادم الحرمين)، مخطوطة، في ٨/٢/١٤٠١هـ.

(١٥) الأعمال الكاملة، ص٣٤٠.

(١٦) سورة النحل، جزء من الآية ٨.

(١٧) الأعمال الكاملة، ص ٧٧١، ٧٧٢

(١٨) المصدر نفسه، ص٤٦٦.